

رحلة الغزالي من الشك الى اليقين :

مقدمة :

يعتبر الامام الغزالي من الشخصيات المؤثرة على الفكر الاسلامي هموما و بعض الفرق الاسلامية خصوصا و من الاوائل المشتغلين و المهتمين بالحقيقة لذلك كان لزاما الاهتمام بهذه الشخصية الفادة و تسليط الضوء على المسيرة الفكرية التي مر بها و رد بعض المغالطات العلمية التي قد وقع فيها من سبقنا لمثل هذه الدراسة و يمكن التساؤل هنا عن ما هي المحطات الكبرى للفكر الغزالي ؟ و ما هي اهم القصور و المغالطات في دراسة الانتاج الفكري للغزالي خصوصا في الحقل الفلسفي؟

بداية يمكننا تتبع رحلة الغزالي الى اليقين، اعتمادا على ما رواه في كتابه المنقذ من الضلال، و بذلك نكتشف احوال الشك و معاناته للوصول الى الحقيقة، و تاثير ذلك على فكره و عدة علوم اسلامية اشتغل بها، و كذا فهم اسباب الخلاف في الاوساط الثقافية على فكر الغزالي.

يصف الغزالي رحلته و روحه المتعطشة للحقيقة قائلا : " ولم أزل في عنفوان شبابي (وريعان عمري) ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقترح لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خَوْضَ الْجَسُور ، لا خَوْضَ الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين مُحَقِّق ومبطل ، ومتسَنِّع ومبتدع ، لا أعادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتجسس وراءه للنتبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته^١

أول ما بدأ به الغزالي رحمه الله للبحث عن الحقيقة و اليقين هو تفحص المحسوسات، الا انها لم تدم طويلا، و لم ترتقي لمستوى الاعتماد و الثقة، فعبر عن ذلك القصور قائلا : " لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول : من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر؟ وهي تنتظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم ، بالتجربة والملاحظة ، بعد ساعة ، تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة (واحدة) بغتة ، بل على التدرج ذرة ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية

^١ - المنقذ من الضلال، ص ٧ . تحقيق سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون الاسكندرية.

تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته.^٢

فنتقل بعد ذلك الى العقل بعد ان تبين انه متقدم على المحسوسات لإقرار الحقائق " لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً "^٣ لكن بعد التفحص و الاخذ و الرد، تبين ان العقليات من جنس المحسوسات في القصور فقد يخدع العقل كسابقه " أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتخيّل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل "^٤

هنا يقع الغزالي في شباك الشك. و يأتيه المنادي الخفي بالتشكيك في يقظته، و امكانية نسبتها الى غيرها، فتصير نوماً بالنسبة لها، و ربما ذلك ما تدعيه الصوفية " لكن يمكن أن تطراً عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي (لهم) ، إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا))^٥ ^٦

و بهذا المنظور المنتهى اليه من طرف الغزالي فقد تكون الحياة مجرد نوم تتكشف حقيقتها بالموت، فتصير كل الاشياء المقررة حالياً على عكس حقيقتها بعد انكشاف الحقائق النهائية بالموت . و صار بعد هذا في حالة شك ما يقارب شهرين، و الداء لا يغادره رغم كل المحاولات للعلاج منه فصارا سفسطائيا بالأحوال لا بالأدلة. الى ان اتى فرج الله، فقذف بنوره تعالى في قلبه، و الذي فسره الغزالي بقوله : لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن (الشرح) ومعناه في قوله تعالى: ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام))^٧ قال: ((هو نور يقذفه الله تعالى في القلب)) فقيل: (وما علامته ؟) قال: ((التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود))^٨. وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه: ((إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره))^٩ فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك

٢ - نفس المرجع الصفحة ٩٢.

٣ - نفس المرجع.

٤ - المنقذ من الضلال، ص ١٠.

٥ - يقول في ش : أنه ليس بحديث ولكن من كلام علي بن أبي طالب

٦ - المنقذ من الضلال، ص ١٠.

٧ - الأنعام: ١٢٥

٨ ذكره ابن كثير في تفسيره بطرق مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً.

٩ رواه أحمد والترمذي والحاكم بلفظ آخر .

النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ، ويجب التردد له كما قال صلى الله عليه وسلم: ((إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها))^{١٠}

بعد هذه التجربة الروحية و العقلية و النفسية للغزالي عاد بعقل و روح موجهين بنور الله فانكشف له اليقين و معايير و تحصل مفاتيح اكثر العلوم، فانحصرت لديه رحمه الله اصناف الطالبين و قسمت الى اربعة فرق : علم الكلام، التعليم او الباطنية، الفلسفة ، التصوف
لعلنا نحن نشير هنا بشيء من التفصيل الى الفلسفة و التصوف. باعتبار الاولى اكثر جدلا في فكر الغزالي، و الثاني لمكانته في الفكر الاسلامي و بناء الحضارة الاسلامية .

١ - الفلسفة و الفلاسفة :

لم يقلل الغزالي من شأن الفلسفة -كما ذهب البعض- بل قام بدراستها و تحصيل مذاهب اصحابها و اقوالهم للخروج بالحكم اللائق بهذا المذهب ، قال رحمه الله " ثم اني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة و علمت يقيناً ، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل [ذلك] العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور و غائله ، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً. ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته و همته إلى ذلك"^{١١}

فخلص بعد ذلك الى تصنيف الفلاسفة الى ثلاثة اقسام :

- الصنف الأول : الدهريون

و هم الذين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة.

- الصنف الثاني : الطبيعيون

اهتموا كثيراً عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فتتعدم . ثم إذا انعدمت ، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا. فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وهؤلاء أيضاً زنادقة

- الصنف الثالث : الإلهيون، المتأخرون من الفلاسفة ، أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو . هؤلاء

ردّوا على الصنفين الأولين ، و هنا يظهر ان الغزالي في حكمه على الفلاسفة اعتمد معيار الايمان. فالدهريون والطبيعيون زنادقة لمخالفتهم أصول الإيمان . أمّا الإلهيون وأبرزهم أرسطو ، فقد اهتم الغزالي بهم و اعترف لهم بالفضل في شتى العلوم ، فبفضل أرسطو رتب المنطق ، وهذبت العلوم.

^{١٠} رواه الطبراني والسيوطي في الفتح الكبير بلفظ آخر قريب ، والبيهقي وأبو هريرة بلفظ آخر ، وأبو نعيم عن أنس.

^{١١} - المنقذ من الضلال ص ١٤ .

و لعل ببيان معيار الغزالي في دراسة الفلسفة يقل الخلاف و يعلم ان اي نقد بمعايير مختلفة عن معايير الغزالي قد تؤدي بالضرورة لأحكام مختلفة تمام عن احكام و نتائج الغزالي بشأن الفلسفة و الفلاسفة.

٢- التصوف و المتصوفة:

بعد ان فرغ الغزالي مما سبق من الفلسفة و غيرها من الفرق توجه بهيمته الى التصوف و الصوفية، و ربما كدلالة ضمنية على انتهاء رحلته في البحث عن الحقيقة الى ايجاد ضالته في التصوف، فنراه يصف علمهم كما وصف انتقاله الى اليقين قائلاً : " فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان؟ وبين أن تعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن تكون سكران! بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء! والصّاحي يعرف حدّ السكر واركأنه وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حدّ الصحة وأسبابها وأدويتها ، وهو فاقد الصحة. فكذاك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا! طريقة ، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله (تعالى) ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك إليه." ^{١٢}

كما اثبت لهم الكرامات و حذر من معاداتهم من الجهال و من ليس له علم بطريقهم قائلاً : " ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات (والمشاهدات) ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه" ^{١٣}...

من هنا يمكننا ان نقر مع الغزالي، و نلاحظ نتائج رحلته نظرياً كما هو موضح في المقال، و عملياً بتتبع سيرته، فقد خرج من بغداد بعد أن تخلّى عن كل شيء ، ثم دخل إلى الشام وأقام فيها ما يقارب سنتين في عزلة وخلوة ، ورياضة ومجاهدة ، معتكفاً في مسجد دمشق ، حيث يدخل إلى منارة المسجد ويغلق بابها على نفسه . ثم رحل بعدها إلى القدس ، إلى المسجد الأقصى ، ومن ثم تحركت فيه داعية الحج ، فتوجه إلى الحجاز .ليرجع للعزلة و التفرغ للتصوف لعلمه علماً يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق

^{١٢} - المنقذ من الضلال ص ٣٥.

^{١٣} - المنقذ من الضلال ص ٤٠.

الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وأن أخلاقهم أزكى الأخلاق ، " بل لو جُمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً. كما ان الكشف الحقيقي والأهم هو ما ظهر له ، من أن طريقة الصوفية لازمة من نور النبوة . فجميع ما يقوم به المتصوفون من حركات وسكنات، في ظاهرها وباطنها مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضاء به.

النتيجة :

- من خلال المقال الذي بين ايدينا تم تحقيق عدة نتائج بفضل الله تعالى و هي كالآتي :
- منهج الغزالي في اقرار الحقيقة كان علميا نظريا في أول البحث و التدقيق، ليتحول الى منهج صوفي رباني مبني على نور الله و الممارسة العملية.
 - اسباب الخلاف حول فكر الغزالي بين الدارسين خصوصا في المجال الفلسفي، كان منبثقا من الاختلاف في المعيار، اي معيار دراسة الفلسفة و الحكم عليها، بحيث اعتمد الغزالي على المعيار الايماني في نقد الفلسفة، و جاءت بذلك كل الاحكام الصادرة عنه تعادي كل فيلسوف قادح في المعاني و الركائز الايمانية. اما غيره من الدارسين للفلسفة فتختلف معاييرهم و مناهجهم باختلاف تخصصاتهم و ثقافتهم و عصرهم ،فجاءت احكامهم و نتائجهم مختلفة ايضا عن ما توصل اليه الغزالي رحمه الله.
 - الحقيقة النهائية التي توصل اليه الغزالي بعد رحلة شاقة وواعرة، تتمثل في الاعتراف بمكانة التصوف و اعتباره غاية لبلوغ كل المعاني الايمانية، بعيدا عن كل العلائق و النظريات الدنيوية التي لا فائدة منها للوصول للباحث عن الحقيقة.

المراجع المعتمدة :

- القرآن الكريم.
- المنقذ من الضلال، للإمام أبي حامد الغزالي، تحقيق سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون الاسكندرية.
- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد الغزالي ، دار المعرفة - بيروت.
- تفسير القرآن العظيم ابن كثير، دار ابن حزم.
- ضعيف الجامع الصغير (وزيادته: الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي.
- تهافت الفلاسفة، للإمام أبي حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، الطبعة الرابعة دار المعارف.

الخلاصة :

نظرا لمكانة الامام الغزالي الفكرية و العلمية كان لزاما علينا دراسة فكره. خصوصا في أوائل تشكله و تبلوره قبل ان يصير ما هو عليه . فقمنا بدراسة خطواته الاولى للتوصل للحقيقة من بداية اختباره للحواس و مدى صدقها في نقل الحقائق، مروراً بالعقل الى حين دخوله مرحلة الشك و تعرية كل المسلمات من قدسياتها. ثم الانتهاء و الاستقرار العقلي و النفسي بعد ان قذف نور في قلبه اعاد له توازنه و بين له الحق من الباطل. ليتفرغ بعدها للتأليف في عدة قضايا، و التوصل فيها الى القول الحق، بعد ما اكتسبه من البصيرة و الفكر السليم . و قد ذكر اربعة اقسام لما سيتم الاقرار فيه و القول فيه بالحق. اكتفينا نحن في هذا المقال بالفلسفة و التصوف لمكانتهما و لكثرة الجدل حولهما الى يومنا الحالي.

فذكر ان الفلسفة تنقسم الى ثلاث اقسام: قسم مثله الدهريون الذين جحدوا وجود الصانع المدبر، و قسم ثاني مثله الطبيعيون الذين انكروا الآخرة. و هذين القسمين من الزنادقة، و هو ما انكره الغزالي في الفلسفة. و قسم ثالث، و هم الالهيون و هم من سلموا من الفلاسفة، من امثال ارسطو و ذلك لتشبثهم و اهتمامهم بالغيبيات، على عكس الاقسام التي وقعت في فخ الكفر و الجحود.

اما التصوف و المتصوفة، فقد علم علما يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وأن أخلاقهم أذكى الأخلاق ، و قد انكشف له الكشف الحقيقي والأهم وهو أن طريقة الصوفية لازمة من نور النبوة . فجميع ما يقوم به المتصوفون من حركات وسكنات، في ظاهرها وباطنها مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضاء به. و هذه هي الحقيقة المنشودة من رحلته الشاقة، و يكفي بيان ذلك بالنظر الى عزلته و خروجه من بلده و الاكثار من الخلوة بعد التوصل اليها.